الحوار والجدل

كأسلوب من أساليب التربية فى القرآن الكريم

مقدمة :

من الأقوال الشائعة التى يرددها كثير من اللادينيين أن الأديان تقوم على جملة من الأفكار التى لا يستقيم إيمان إلا بالتسليم بها ، وأن التوقف عند هذه الأفكار للتساؤل عنها ومدى صحتها ينتقض الإيمان ، بينما العلم على العكس من ذلك ، الفكرة فيه إن هى إلا فرض يظل موضع شك وتساؤل ، قابلا للأخذ به أو نقضه ، والذى يفصل فى ذلك هو التجربة ، أو الحوار والنقاش والجدل .

وليس مرادنا هنا أن ندفع هذا الاتهام الجائر للفكر الدينى ، ذلك أننا نرفض أن يكون الفكر الدينى مجرد رد فعل لرد اتهام ، وإنما مرادنا أن نبين من خلال الحجة والدليل والبرهان ، أن الإسلام فى تربيته للشخصية المسلمة ينتهج نهجا عقليا يقوم على الجدل والحوار والمناقشة .

ونحن فى سبيل هذا سنتناول القرآن الكريم بالدرجة الأساسية ، فهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكلمة الفاصلة فى كل ما يرده الله وما لا يريده ، وهو الحقيقة الفاصلة الحاسمة بين الحق والباطل ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] ، ومن ثم فهو الذى يجب أن ندرسه دراسة واعية تقوم على الفهم والاقتناع ، وتقوم على الدراية والهداية .

المعنى والمكانة :

الفرق بين الحوار والجدل ، فيما هو واضح من استخدامات القرآن الكريم لكل منهما أن الحوار يكون عندما يضطرب الذهن ويصبح العقل فى حيرة من أمر نفسه وأمر قضية من القضايا أو مسألة من المسائل . ويراد من الحوار أن يخرجه من كل ذلك . وتكون مادة الكلام فى الحوار هينة لينة أو غير قاسية وغير عنيفة . أما الجدل فيكون عندما يكون هناك صراع

---

[1] البقرة / ٢.

فكـرى حـول قضـية من القضايا أو مسألة من المسائل ، ويكون الهدف عند كل واحد من المتجادلين هو هزيمة الآخر فكريا والانتصار عليه [١] .

ومـن الألفاظ قريبة المعنى من الجدل والحوار ، كلمتا (المناظرة) و (المكابرة) ، فالمناظـرة يكـون الغـرض منها الوصول إلى الصواب فى الموضوع الذى اختلفت أنظار المتناقشـين فيه . والمكابرة ، لا يكون الغرض منها إلزام الخصم ، ولا الوصول إلى الحق ، بل اجتياز الموقف ، والشهرة أو مطلق اللجاجة ، أو غير ذلك من الأغراض التى لا تغنى فى الحق فتيلا .

وقد تشتمل المناقشة على كل هذه الأنواع ، إذ قد يبتدئ المتناقشان حوارهما متناظرين طالبين للحق ، فيقدح فى ذهن أحدهما رأى يثبت عليه ويأخذ فى جذب خصمه إليه ، وإلزامه به ، وحينئذ تنقلب المناظرة جدلا .

وقـد تدفعه الحاجة إلى التعصب لرأيه ، وتأخذه العزة بالإثم ، تبدو له الحجج واضحة علـى نقيض رأيه ، ويفحمه خصمه بالدليل تلو الدليل ، فلا يجد جوابا ، ومع ذلك يستمر فى لجاجـته ، فينـتقل الجـدل إلـى مكابرة . وقد تشتمل المناقشة على جدل ومناظرة ، كأكثر المحاورات السقراطية . كان سقراط يبتدئ بمجادلة خصمه فيما يدعيه ، حتى يفحمه ، فيقتنع بجهله ، ثم يناقشه حتى يأخذ بيده إلى الحق [٢] .

وقد وردت كلمتا الحوار والجدل فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، ولكن الكلمة الأولـى أقـل استعمالا من الثانية .. فنحن لا نجد لها ذكراً إلا فى آيات ثلاث ، جاءت اثنتان مـنها فـى سورة الكهف فى معرض الحديث عن قصة صاحب الجنتين وحواره مع صاحبه الـذى لا يملك الكثير من المال وغيره ، فقد استعمل القرآن الكريم كلمة الحوار فى موضعين منها [٣]. أما الآية الثالثة التى وردت فيها هذه الكلمة . فقد جاءت فى سورة المجادلة فى قصة المرأة التى أتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم شاكية زوجها إلى الله [٤] .

---

[١] محمد أحمد خلف الله : مفاهيم قرآنية ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٧٩) يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ١٩٨٤ ، الكويت ، ص ١٥٧ .
[٢] محمد أبو زهرة : تاريخ الجدل ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٥ .
[٣] الكهف / ٣٤ ، ٣٧ .
[٤] المجادلة / ١.

أمـــا الكلمـــة الثانية فقد جاءت الإشارة إليها فى سبعة وعشرين موضعا ، فى القضايا الخاصـــة والعامـــة ، مـــن دينية تتعلق بقضايا العقيدة والحياة ، أو اجتماعية تدخل فى أمور المجتمع .

وقد أخذت هذه الكلمة هذه المساحة الواسعة فى القرآن الكريم نظرا لما واجهه الإسلام مـــن قضـــايا أو عاش فيه الإنسان من مواقف . لقد واجه الإسلام التحديات الفكرية والتقليدية التـــى تعيش فى داخل وعى الإنسان وفكره مما يدخل فى حركة التغيير التى يريد الإسلام لها أن تغزو أعماق الإنسان وفكره ، لتنقله من ظلمات الشك والكفر والضلال ، إلى نور الإيمان والتوحيد والهداية [١] .

كمـــا أنه واجه التحديات الخارجية من القوى الدينية والاجتماعية والسياسية التى كانت تســـيطر على حياة الإنسان فى المجتمعات التى لم تكن تؤمن بالإسلام ، فقد عملت الكثير من أجل ألا تسمح للإسلام بالتقدم ، لتعطل فاعليته ، وتؤخره عن مسيرته بمختلف الوسائل التى تملكهـــا ، ســـواء فى ذلك ما أثارته من حروب طويلة مرهقة وما وضعته أمامه من حواجز وعقـــبات ، ومـــا حشدته من شبهات وأفكار وأساليب اللف والدوران ، من أجل أن تزرع فى الـــنفوس المـــزيد مـــن القلق والشك والحيرة ، بالنسبة إلى ما يقدمه الإسلام من هدى وحلول لمشاكل الحياة الداخلية والخارجية .

وعلى هذا الأساس ، وقف الإسلام فى وجه كل هذه التحديات ليرد التحدى بمثله ، من موقـــع الـــرغبة فى الوصول إلى الحق ، وإفساح المجال للأفكار بأن تلتقى بمفاهيمه ، لا من موقـــع الـــرغبة فـــى الغلـــبة من أجل حب الغلبة ، ولهذا لجأ الإسلام إلى الجدل القائم على الحـــوار[٢] والمـــادة اللغوية التى جاءت منها كلمة الجدل هى (ج د ل) ، تقول جدل الرجل جـــدلا – خاصـــم . والجدل هو المنازعة فى الرأى ، ويطلق على شدة الخصومة واللدد فيها وتقـــول : جـــادل مجادلـــة وجـــدال – خاصم : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ [٣] والجـــدل قد يكون بالباطل ليصرف عن الحق ، وقد يكون ليدحض الباطل ، والمقام هو الذى يعين المراد ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [٤] . ويقول الراغب فى كتابه المفردات

---

[١] محمد حسين فضل الله : الحوار فى القرآن ، الدار الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦.
[٢] المرجع السابق ، ص ١٧ .
[٣] النحل / ١١١ .
[٤] غافر / ٥ .

فـــى غـــريب القرآن : الجدل : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله من جدلت الحـــبل أى أحكمت فتله ، ومنه الجديل ، وجدلت البناء : أحكمته . والمجدل : القصر المحكم البـــناء. والأجدل : الصقر المحكم البنية ، ومنه الجدال ، فكان كل واحد من المتجادلين يفتل الآخر عن رأيه [١] .

وقـــيل الأصل فى الجدال : الصراع ومحاولة كل واحد إسقاط صاحبه على الجدالة – وهى الأرض الصلبة .

وأصـــل المادة اللغوية التى منها جاءت كلمة الحوار : (ح ، و ، ر) ، تقول : حار يحـــور حورا : رجع (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) – أى يبعث ويرجع للحياة مرة ثانية . وحاوره محاورة : راجعه فى الكلام . وتحاورا : تراجعا وتجاوبا [٢] (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ)، (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) ، ويقول الراغب فى كتابه المفردات : الحور : التردد – أما بالذات وإما بالكفر . وحار الماء فى الغدير : تركه فيه . وحار فى أمره : تحير . ومنه المحور إلى تجرى عليه البكرة لتردده ، والمحاورة والحوار : المرادة فى الكلام [٣] .

صور وأساليب الجدل والحوار :

جـــاء فى القرآن الكريم عن الإنسان قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [٤] فقد نستوحى من هذه الآية الكريمة أن هذه الصفة ، الجدل ، من الصفات اللازمة للإنسان فـــى طبيعة خلقه وتكوينه ، تماماً ، كبقية الصفات الفطرية التى تميزه عن سائر المخلوقات ، فقـــد فطر الإنسان على أن يواجه الحياة بكل ما فيها من أوضاع وأحداث وملابسات وأفكار ، بعقلية متفتحة قلقة ، لا تستقر على حال ، فتراه يفتش عن الشىء وضده فى رحلة جديدة نحو الشك ، ولا يشك إلا ليبدأ رحلته الطويلة نحو اليقين [٥] .

وهكذا تتنوع الأفكار والآراء وتختلف فى كل مرحلة من مراحل حياته ، تبعا للقضايا التـــى تفـــرض هذا الرأى أو ذاك مما يجعل قضايا الفكر تتنامى وتتصاعد وتتضخم ، وتخلف وراءهـــا عديـــدا مـــن الأتباع والأنصار الذين يكونون فى حياة البشرية دوائر مختلفة تتميز

---

[١] خلف الله : مفاهيم قرآنية ، ص ١٦٧ .
[٢] مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المعجم الوسيط ، مادة (حور) .
[٣] مفاهيم قرآنية ، ص ١٦٧ .
[٤] الكهف / ٥٤ .
[٥] فضل الله ، الحوار فى القرآن ، ص ٢١ .

بمميـــزات فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية . ولابد للحق - فى مثل هذه الأجواء - أن يواجه ذلك كله بأساليب مماثلة أو متفوقة ، لأن الطريق إلى فكر الإنسان وقلبه لم تعد خالية ، بـــل أصبحت مزدحمة بكثير من المفاهيم والآراء التى تحجب عنه الحق أو تمنعه من وضوح الـــرؤية ممـــا يـــتطلب جهـــدا كبيرا فى تمهيد الطريق التى يسلكها إلى حياة الإنسان الفكرية والعقدية من حيث الأسلوب والفكرة [١] .

تـــرى : ما الأساليب والصور التى اتخذها الجدل والحوار فى القرآن الكريم ؟ هذا ما سوف نحاول بيانه فيما يلى :

١- **القصة** : تحتل القصة مكانا بارزا فى القرآن الكريم مما يؤكد إدراك الإسلام لميل الإنســـان الفطرى إلى القصة ، وإدراكه ما لها من تأثير ساحر على القلوب ، فيستغلها لتكون وســـيلة مـــن وســـائل التربية والتقويم . والقرآن يستخدم كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها ، والقصة الواقعية التى تعرض نموذجا لحالة بشـــرية ، فيســـتوى أن يكـــون بأشخاصها الواقعيين أو بأى شخص يتمثل فيه ذلك النموذج ، والقصـــة التمثيلـــية التى لا تمثل واقعة بذاتها ولكنها يمكن أن تقع فى أية لحظة من اللحظات وفى أى عصر من العصور [٢] .

وللقصة فى القرآن طريقتان :

أ- طـــريقة عـــرض الأحداث بشكل تقريرى تنتقل فيه الحكاية من مرحلة إلى مرحلة حتى تبلغ نهايتها .

ب- طـــريقة الحـــوار الذى يحاول أن يمثل فيه كل طرف من أطراف القصة ، ولكل بطـــل من أبطالها دوره الذى يعبر عنه بأسلوب واضح ، ويثير فيها بعض القضايا التى يقف إزاءها البطل الآخر ليعبر عن دوره بكل أمانة ووضوح .

ومـــن أمثلة القصص القرآنى فى هذا الشأن ، قصة صاحب الجنتين ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَـــثَلاً رَجُلَـــيْنِ جَعَلْـــنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَـــاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

---

[١] المرجع السابق ، ص ٢٢ .

[٢] محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، دار القلم ، القاهرة ، ط٢ ، ص ٢٣٧ .

أَبَــداً ، وَمَــا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُــوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ؟ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْــرِكُ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَــعِيداً زَلَقاً ، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ [١] .

والتــربية بالحــوار أكثر ما تكون فى القصص الطويلة التى تتسع للجدال . والقرآن يخــتار من هذا الجدال لقطات من الأقوال الموحية فيصوغها فى عبارات موجزة بليغة تفيض حكمــة ورشــدا فــيما يجرى على ألسنة الهداة ودعاة الحق الذين يسلكون فى الحوار مسلك الحكماء ، أو ضلالا وزيفا فيما تتضح به القلوب المريضة والنفوس المنحرفة [٢] .

والقــرآن إذ يفسح فى قصصه مجال القول لخصوم الحق ودعاة الفتنة ، فإنما ليكشف عن زيغهم وضلالهم ، ولينبه إلى فساد رأيهم وباطل قولهم .

وفــى بعض الحوار إرشاد لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق ، وإرشاد إلى الخلق الكــريم والأدب العالى ، فهود عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله ، وإلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم فيقولون له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيرد عليهم بقوله : ﴿ قَــالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِــحٌ أَمِينٌ . أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٣].

٢- **التمثــيل** : واســتخدم القرآن (التمثيل) لتقريب المعانى البعيدة ، وللبرهنة على وجــود الله عــز وجل ووحدانيته ، كما استخدمه لتوجيه السلوك الإنسانى إلى ما هو خير له ولديــنه قــال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٤]

---

[١] الكهف / ٣٢-٤٣ .
[٢] التهامى نفرة : سيكلوجية القصة فى القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٤ ، ص ٥٨٥ .
[٣] الأعراف / ٦٧ .
[٤] الزمر / ٢٧ .

وقال سبحانه ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [١] وقال عز وجل : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٢] ، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٣] .

إن الجنة هنا ظليلة وارفة مخصبة ، وكذلك الصدقة فى طبيعتها وفى آثارها .. كذلك هى فى حياة المعطى وفى حياة الآخذ وفى حياة الجماعة الإنسانية . كذلك هى ذات روح وظل ، وذات خير وبركة ، وذات غذاء وروى ، وذات زكاة ونماء ، فمن ذا الذى يود أن تكون له هذه الجنة – أو هذه الحسنة – ثم يرسل عليها المن والأذى يمحقها محقا ، كما يمحق الجنة الإعصار فيه نار ؟ ومتى ؟ فى أشد ساعاته عجزا عن إنقاذها ، وحاجة إلى ظلها ونعمائها . وهكذا يقوم المشهد الحى الشاخص ، بما فيه أول الأمر من رضى ورفه ومتعة ، وما فيه من نضارة وروح وجمال ، ثم بما يعصف به عصفا من إعصار فيه نار .. يقوم هذا المشهد العجيب بالإيحاء الشعورى الذى لا يدع مجالا للتردد فى الاختيار ، قبل أن تذهب فرصة الاختيار ، وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار[٤].

وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[٥] ، فصور كلمة الحق طيبة ، وكلمة الباطل خبيثة ، فجعل الأولى كالشجرة الحسنة المثمرة الظلة النافعة الراسخة السامقة تسخو بثمرها فى حينه بإذن الله . وأما الثانية فإنها كالشجرة القبيحة الكريهة التى استؤصلت من مكانها ، فلا حياة فيها ولا رعاية لها ، ولا نفع منها ، وكذلك التوحيد يعمر قلب المؤمن ويهديه إلى طاعة الله وإلى العمل الصالح ، فينال الثواب فى دنياه وفى أخراه . كذلك الشرك ، فإنه باطل وقبيح وليس له خير ولا بقاء .

---

[١] إبراهيم / ٢٥ .
[٢] النور / ٣٥ .
[٣] البقرة / ٢٦٦ .
[٤] سيد قطب : فى ظلال القرآن ، القاهرة دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ج١ ، ص ٣١٠ .
[٥] إبراهيم / ٢٤ – ٢٦ .

وهكذا يوضح الله الأمثال للناس ، ويشبه لهم المعنويات بالمحسوسات ليفهموا ويعلموا ويؤمنوا إيمانا راسخاً قويا [١] .

وفـــى القـــرآن الكـــريم أنواع أخرى من التمثيل من شأنها أن تبث الوعى فى العقول النائمة بما تحمله من قوة الحجة وصدق البرهان ، من ذلك :

- قـــوله تعالـــى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَـيَكُونُ﴾ [٢] ، فـــالله الذى خلق آدم من غير أبوين ، من المنطقى أن يكون قادرا على خلق عيسى من غير أب .

- وقـــوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٣] .

فشـــتان مـــا بين المؤمنين والمشركين لأن المؤمنين هداهم الله فجعل إيمانهم به نورا يسترشدون به فلا يضلون فصاروا كالأحياء بعد موت [٤] .

٣- الشـــك المنهجى : ونقصد به أن يطرح الإنسان عن عقله تأثير المورثات الفكرية الســـابقة ليبدأ تفكيره فى القضية المعروضة عليه وفقا لما تقوم عليه من حجج وأسانيد ، فهو إذن الشـــك الذى يوصل الإنسان إلى اليقين ، وليس ذلك الشك الذى يزعزع الثوابت ولا يقدم البديل الأفضل فيعيش الواقع تحت تأثيره فى هم وقلق دائمين .

إن الإنســـان حيـــنما ينشأ فى بيئة من البيئات الاجتماعية ، لابد أن يكتسب منها عن طـــريق التقليد معارف ومهارات وعادات وأخلاقا كثيرة ، ومن هذه المكتسبات ما هو حق ، ومنها ما هو باطل ، ومنها ما هو فاسد ، ومنها ما هو شر ، وبمقتضى نشوئه فى هذه البيئة يـــتكون فى نفسه إلف لها مهما كان وضعها ، وإذ يعتبر نفسه جزءا من هذه البيئة يتكون لديه بدوافـــع الأنانية الذاتية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه وسائر من هم فى بيئته ، وجميع مـــا هـــو فى بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق ، لأنه بتعصبه هذا يحاول أن يدافع عن كيانه الذاتـــى مـــن وجهة نظره المنحرفة عن منهج التفكير السليم دون أن يسمح لعقله المتجرد عن

---

[١] أحمد محمد الحوفى : القرآن والتفكير ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة دراسات فى الإسلام (١٧٠) ، ص ٨٠ .
[٢] آل عمران / ٥٩ .
[٣] الأنعام / ١٢٢ .
[٤] الحوفى : القرآن والتفكير ، ص ٨٢ .

مؤثـرات البيـئة أن يبحث ويناقش ، ويميز بين الحق والباطل ، والصالح والفاسد ، والخير والشر [١] .

ولعل من أوضح الأمثلة التاريخية لذلك ، ما كان عليه المشركون عندما برز الإسلام كدعـوة توحيد ، فلقد احتج الجاهلون بأنهم إنما يسيرون على منوال آبائهم ، فهنا يسخر منهم القـرآن ويطلـب منهم أن يعرضوا هذا الذى كان عليه آباؤهم على ميزان عقلهم وتفكيرهم ، وهـم إذا فعلوا ذلك ، فسيكتشفون ما عليه من زيف وتهافت ، ويستظلون بظلال الإسلام ذات اليقـين الراسـخ ، يقـول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَـا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [٢] وقال تعالى أيضـا : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [٣] .

كـذلك يستطيع المسلم أن يستمد من القرآن فى هذا الشأن أسلوبا عمليا آخر يواجه فيه الخصـم بقناعاته المرتكزة على ما يملك من أدلة وبراهين على صحتها – من جهة – وفساد الأفكـار المضادة لها من جهة أخرى ، ولكنه لا يجعل من هذه القناعات سدا منيعاً يغلق على الموقف أبواب التحرك مع قناعات الآخرين ، بل يترك الباب مفتوحا للأفكار المضادة لتطرح نفسـها مـن جديد من خلال ما تملك من أدلة جديدة تستطيع أن تتغلب على أدلة الفكرة التى يؤمن بها ، لتثبت أنها أفضل وأهدى سبيلا [٤] .

ولعل وجه القيمة فى هذا الأسلوب ، أنه يجرد الموقف من حالات التعصب والتزمت التـى تحجر الفكرة فلا يسمح لها بالتحرك الذى تخوض معه قصة الصراع من جديد ، فيكون الموقـف الإيمانى واضحا قويا يتحدى ويقبل التحدى بحيث يكون جاهزا لذلك فى كل وقت ، كلمـا بـرزت هناك حاجة جديدة للصراع أو كلما استطاع الخصم أن يحصل على دليل جديد للفكرة المضادة وهذا هو الذى توضحه لنا الآية الكريمة : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٥] .

---

[١] عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ، مكة ، ط١ ، ص ٢٩٢ .
[٢] المائدة / ١٠٤ .
[٣] البقرة / ١٧٠ .
[٤] فضل الله الحوار فى القرآن ، ص ٥٦ .
[٥] القصص / ٤٩ .

فالقضية ، كل القضية ، هى أن هناك هدى يجب أن يتبع فى الطريق ، أو فى الغاية ، وقد كان إيماننا ومسيرتنا فى خط هذا الإيمان ، على أساس قناعتنا بأنه الهدى وأن غيره ضلال وانحراف ، فإن كان لديكم طريق أفضل ، أو كتاب أهدى فدلوناعليه لنتبعه لأننا لا نخضع لأية عقدة ذاتية فى هذا المجال .

٤- **السؤال** : وحفلت آيات القرآن الكريم بالعديد من أدوات الاستفهام ، فضلا عن آيات متعددة تبدأ بكلمة (يسألونك) و (سألك) و(سألها) و (سألهم) و (يسألك) . ومن استعراض الآيات التى تناولت الأسئلة ، نجدها مغايرة لما ألفناه فى السؤال والجواب ، حيث معلوم بأن السؤال يقصد به فقط الجواب عن مضمون السؤال والجواب ، حيث معلوم بأن السؤال يقصد به فقط الجواب عن مضمون السؤال . ولكن بلاغة القرآن وتفوقه البيانى ونهجه التربوى انتحى بالسؤال منحى الهدف والغاية والوسيلة والحجة والبرهان والدليل ، فوجدنا أسلوب الأسئلة فى القرآن يهدف إلى : التنبيه والتحذير والإعداد للإجابة ، وإلى التوبيخ والسخرية والاعتراف وإلزام الحجة ومراعاة المسئول ويشير إلى الجزاء والحساب والطلب والبحث عن البراءة ، والتأكيد على الأزمات وعلى قدرة الله والتنبيه إلى سؤال المختص ، والاستنكار والتحسر وإلى المعرفة والاعتراف والمحادثة والمسامرة وإلى تعجل الأمور والمكابرة ومراعاة الأجوبة [١] .

وكثيرا ما جاءت فى كتاب الله تعالى أسئلة للتحدى ، اقترن فيها التحدى باستثارة العقول الخامدة وإيقاظ القلوب الجاحدة والحض على التفكير والتعقل [٢] .

- فقد سألهم : هل لأحد منكم شركاء من عبيده يهابهم فيما يريد أن يفعل أو يستقل بتصريفه من شئون ؟ وهل لهؤلاء العبيد أن يستبدوا بعمل لا برضاء سيدهم ؟ وهل يهاب الأحرار عبيدهم كما يهاب بعضهم بعضا ؟

الجواب على هذا كله بالنفى ، فكيف يعقل إنسان أن يكون لله تعالى - وهو خالق الأحرار والعبيد ومالكهم - شركاء من خلقه ؟ قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٣] .

---

[١] عبد القادر حاتم : الإعلام فى القرآن الكريم ، مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٨٥ القاهرة ، ص ٢٤١.
[٢] الحوفى : القرآن والتفكير ، ص ٦٦.
[٣] الروم / ٢٨.

- وســألهم : انظــروا إلى النطف التى يخلقكم منها ، أأنتم خالقوها أم هو سبحانه ؟ وعقــب على هذا بأنه الخالق الذى أحياكم مما أراد ، فهو القادر على أن يخلق أشباهكم وهو القادر على أن يبدلكم خلقا آخر لا تعلمونه ، وهو القادر على أن يبعثكم يوم القيامة أحياء.

وقال لهم : انظروا إلى الزرع الذى تزرعونه ، أأنتم الذين تصيرونه نباتا يرف ويكبر أم الله تعالى ؟ إنه الله الذى يستطيع أن يجعل الزرع هشيما فتألمون وتتحسرون على ما أنفقتم عليه من جهد ومال ، وتندمون على معصيتكم لله التى أنزلت بكم هذه الخسارة ، وتقولون إننا لهالكون بهلاك زرعنا وضياع رزقنا ، بل إننا لتعساء لا حظ لنا من الخير [١] .

وســألهم : فكــروا فــى المــاء الذى تشربونه : من الذى خلقه ؟ من الذى أنزله من السحاب أأنتم أم الله ؟ إنه الله القدير على جعل الماء العذب ملحا زعافا لا يشرب ولا ينقع من غلــة ، فهــلا آن لكــم أن تشكروا لله نعمه الكثيرة عليكم ؟ وقال لهم : تدبروا فى النار التى توقدونها لمنافعكم الكثيرة ، أأنتم الذين خلقتم شجرها أم الله أن الله هو الذى خلقها ، وهو الذى يذكركم بها نار جهنم وهو الذى جعل فيها منافع لمن يوقدونها فى الفقر وفى الحضر لإنضاج الطعــام وممارســة الصــناعات . قــال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُــونَ ، وَلَقَــدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْــنُ الزَّارِعُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . أَفَــرَأَيْتُمُ الْمَــاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ؟ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجــاً فَلَــوْلا تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ؟ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ [٢] .

٥- **التفكير المنطقى** : ومعناه المبسط هنا هو أن نقيس أمرا مجهولا على أمر معلوم لنــرى ما بينهما من تشابه أو تضاد ، فإذا اتفقا كان حكمهما واحدا ، وإن اختلفا اختلف الحكم بمقــدار ما بينهما من خلاف . وقد يكون التناقض التام أساسا للحكم على المجهول كالتناقض

---

[١] الحوفى ، القرآن والتفكير ، ص ٦٧ .
[٢] الواقعة / ٥٨ ـ ٧٣ .

بين الحياة والموت والليل والنهار والعمى والإبصار [١] : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ ﴾ [٢] .

ومن أمثلة القياس المنطقى الذى أثبت به الله عز وجل الوحدانية ، ما نجده فى قوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [٣].

فهنا نحن نرى أن هذه الآية قد بدأت بالحكم فى القضية وهى الوحدانية المطلقة المنزهة عن الشريك وكأنها أمر واضح لا لبس فيه ، ولا غموض ولكنها مع هذا الحكم جاءت تحمل معها البرهان القاطع والدليل ، فكأنها حكم فى قضية أصدره القاضى وشفعه بحيثيات الحكم التى لا مجال معها لنقض ولا إبرام [٤] . والقياس يسلك طريق النفى الموصل إلى الإثبات ، فإذا فرضنا أن هناك آلهة عديدين فماذا يحدث فى الكائنات ؟ من الطبيعى أن يكون لكل إله شخصيته المتميزة وكيانه الخاص به بحيث لا يكون أحدهم صورة مكررة من الآخرين ، وهذا التميز لابد أن يتبعه تميز فى الأفعال والخلق والتدبير بما يناسب تميز هذه الشخصيات ، وحينئذ فلابد من التعارض ولابد أن يكون ما خلقه كل إله متميزا بطابع خاص يختلف عما خلقه الإله الآخر وهنا تتعارض الصفات وتتباين المقومات ويقع الاختلاف ، والخلاف يؤدى إلى أن يستقل كل إله بما خلق ، وهذا الاستقلال يستدعى أن يتميز كل إله عن الآخر ويحاول أن يتفوق عليه ، وأن يعلو عن مستواه ، وهنا يتفكك الكون وتتبدد الكائنات ويفسد نظام الأرض والسموات ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [٥] .

ولكن ملاحظة الواقع تبين لنا أن الكون وحدة واحدة متماسكة تخضع لقوانين محكمة ونظم دقيقة وتديرها إرادة حكيمة بصيرة طبقا لقوانين واحدة يلمسها علماء الطبيعة والفلك والطب والحياة ، فالذرة مجموعة شمسية مصغرة والأجرام الفلكية تدور حول نفسها وحول مراكز مجراتها من الغرب إلى الشرق فى أفلاك بيضاوية ، وكلها خاضعة لقانون الجذب

---

[١] على عبد العظيم : فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢٣٣ .
[٢] فاطر / ١٩ – ٢١ .
[٣] المؤمنون / ٩١ .
[٤] على عبد العظيم : فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم ، ص ٢٣٦ .
[٥] الأنبياء / ٢٢ .

والدفـــع ﴿ وَكُـــلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [١] ، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ [٢] .

مـــا دامت هذه الوحدة الحكيمة ماثلة أمام البصائر والأبصار ، فالقياس المنطقى يؤدى إلى إثبات القضية وهى وحدانية الإله [٣] .

إن القـــياس الـــذى تتســـابق إلى ميدانه عقول العلماء وعن طريقه يتم إدراك أسرار الشـــريعة ، لا يـــتم ولا تظهر ثمراته إلا بوجود ركنه العظيم وهو العلة ، ولكن مجرد وجود الجامـــع فى الأصل وفى الفرع لا يكفى ، بل لابد من أدلة تدل على تحقق وجود الجامع بين الأصل والفرع ، وهذا ما يسميه الأصوليون (مسالك العلة) وهى قسمان : مسالك سمعية ، وأخرى عقلية . والمتتبع للأقيسة المذكورة فى كتب الفقه الإسلامى يجد أكثرها ثابتا بالمسالك العقلـــية [٤] . ومن أهم هذه المسالك (السبر والتقسيم) ومعناه : حصر الأوصاف التى توجد فـــى الأصـــل (المقـــيس عليه) والتى تصلح للعلية فى بادئ الرأى ثم اختبارها بإبطال ما لا يصلح ، فيتعين الباقى للعلية [٥] .

ومثالنا من القرآن الكريم : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [٦] . ففى هذه الآية حصرت الأوصاف فى ثلاث بالتقسيم الصحيح :

الأولى : أن يكونوا خلقوا من غير شئ – أى دون خالق أصلا .

الثانية : أن يكونوا خلقوا أنفسهم .

الثالثة : أن يكونوا خلقهم خالق غير أنفسهم .

ولا شك أن القسمين الأولين باطلان ، وبطلانهما ضرورى كما ترى ، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه لوضوحه .

والثالث : هو الحق الذى لا شك فيه وهو أنه تبارك وتعالى خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده ، وقد حذف فى الآية لظهوره [٧] .

---

[١] يس / ٤٠ .
[٢] الملك / ٣ .
[٣] على عبد العظيم ، ص ٢٣ .
[٤] أحمد إبراهيم عباس الذروى : إثبات العلة الشرعية بالأدلة العقلية ، دار الشروق ، جده ، ١٩٨٢ ، ص ١٠ .
[٥] المرجع السابق ، ص ٤٩ .
[٦] الطور / ٣٥ .
[٧] الذروى : إثبات العلة الشرعية ، ص ٥٠ .

شروط الجدل والحوار :

وإذا كانت هذه هى بعض صور وأساليب الجدل والحوار ، فإن كلا منهما يستلزم توافر أسس وشروط جوهرية بدونها لا نستطيع – فى المنظور الإسلامى التربوى – أن نطمئن إلى نتائجهما الإيجابية فى تربية الشخصية المسلمة ، من هذه الأسس والشروط :

١- **العقيدة الصحيحة** : نقول العقيدة الصحيحة لأن اعتقاد الإنسان بوجود إله مسألة فطرية لا تحتاج إلى نبى ولا رسول ، إنما الذى يحتاج دائماً إلى الأنبياء والرسل هو تصحيح العقيدة فإن الفطرة – إذا تركت وشأنها – كثيرا ما تضل ، فتصور الله على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى ، وتتقدم له نتيجة لذلك بعبادة مشوهة ، ليست هى ما يفرضه الله ، فيجئ الأنبياء والرسل ليردوا الفطرة إلى سلامتها ويعطوها الدين القيم على حقيقته الربانية : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [١] .

وكما جاء كل نبى من قبل ليقول للناس (لا إله إلا الله) ، ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، فكذلك جاء رسول الله ﷺ ليقول نفس القولة الخالدة التى تتمثل الحقيقة الأزلية : (لا إله إلا الله) ويطلب من الناس أن يعبدوه وحده دون شريك ، والسور المكية لا تتناول إلا موضوع هذه العقيدة بكل ما يستلزمه الحديث فيها من صفات ، فينبغى أن نعلم أن هذا هو حجر الأساس فى التربية الإسلامية كلها ، وفى الحياة الإسلامية كلها كذلك [٢] .

ومما له دلالة فى فلسفة التربية الإسلامية ، أن درس العقيدة لم ينقطع بانتهاء الفترة المكية ، بل استمر حتى بعد تكون الدولة المسلمة فى المدينة ، وبعد رسوخ الإيمان فى قلوب المؤمنين إلى حد القتال فى سبيل العقيدة والاستشهاد فى سبيل الله . كل الفرق أنه بعد أن كان الدرس الوحيد فى السور المكية صارت معه دروس أخرى فى المدينة من تشريعات وتوجيهات وتنظيمات وتوعية سياسية وجهود كثيرة إعدادا لمعركة لا إله إلا الله ، وأنه بعد أن كان الدرس يلقن هناك على سبيل التأسيس ، صار يلقن هنا على سبيل التذكير ، بعد أن ترسخت قواعده هناك .

ولكن استمرار تلقين الدرس للمؤمنين بعد أن آمنوا هو الأمر ذو الدلالة الهامة ، لأن معناه أن هذا الدرس لا ينتهى أبدا مهما كانت حالة المؤمن من الإيمان ، فلابد من التذكير

---

[١] الروم / ٣٠ .
[٢] محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ج٢ ، ص ٢٥ .

الـدائم حتـى للمؤمنين ، والله هو خالق هذه الفطرة والعليم بمسارها ومسالكها ، وما هى فى حاجة إليه لتقويمها وإصلاح ما ينحرف منها ، فإذا ظل يذكر المؤمن بالعقيدة وهو مؤمن فلأنه يعلـم بشدة جاذبية المطالب والحاجات الدنيوية ، وحاجة الناس إلى الجهد الدائب لموازنة هذه الجاذبية [١] .

إن الإيمان الحقيقى وثيق الصلة بقداسة الكلمة ، والكلمة الطيبة وحدها هى التى تلتزم بالقدسـية المقـررة لها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الجزاء الطيب الذى ينتظر المؤمنين حقا ، إنما هو جزاء هدايتهم فى الحياة الدنيا إلى الطيب من القول الذى يوصلهم إلى الصراط السوى فى الآخرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـارُ يُحَلَّـوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ، وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [٢] .

وهـذا الإيمـان الحقيقـى هو الذى يمنح المؤمن فى أحلك الأزمات طاقة كبرى من الاحتمال والثقة فى الله ، تحول بينه وبين تهور اللسان أو غيظ النفس ، وفى نفس الوقت تملأ كيانه بالسكينة فى وقت عصيب يكون خلاله فى أمس الحاجة إلى قدر من السكينة [٣] .

٢- **الـثقة بالعقـل** : فقد جهد الفلاسفة والمفكرون فى الوصول إلى خصوصية تميز الـنوع الإنسـانى عـن عموم جنسه فى الحيوان ، فكان النطق هو هذه الخصوصية المميزة لنوعنا ، حين يستوى مع عامة الحيوان فيما تقوم به الحيوانية من طعام وشراب وتناسل ، وما تحـتاج إلـيه مـن ضـرورات الـبقاء المـادى . ومـن ثـم قالوا فى تعريف الإنسان أنه (حـيوان ناطق) واطمأن المناطقة إلى أنه تعريف جامع لكل أفراد الإنسان ، مانع لغيره من الحيوان الأعجم [٤] .

وإذ يعـد القـرآن البيان خصوصية مميزة للإنسان عن عامة الجنس الحيوانى ، فإنه يلفـت النظر إلى أن مجرد النطق الصوتى ليس مناط إنسانيته الناطقة . ونستأنس هنا بالآيات الست التى ورد فيها لفظ (البكم) حيث يتعين فيها جميعا أن قيمة النطق ، أو السمع والبصر، ليسـت فـى آلـية هذه الأجهزة العضوية . فالحيوان فى عمومه المطلق ، مزود كذلك بألسن

---

[١] المرجع السابق ، ص ٥٤ .
[٢] الحج / ٢٣ ـ ٢٤ .
[٣] محمد عبد الله السمان : القرآن والسلوك الإنسانى ، سلسلة الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٢ .
[٤] عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٥٦ .

وآذان وعـيون ، وإنمـا مناطها فى أن يكون النطق الإنسانى بيانا ، وسمعه وعيا وإدراكا ، وبصره تمييزا وهدى ، وإلا مسخت إنسانية الإنسان فهبط إلى دونية الدواب العجماء : ﴿ لَهُمْ قُلُـوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [١].

إن العقل هو بمثابة الدليل فلولاه لما أجدى سمع ولما أغنى بصر ، فسمع بلا عقل هو لحمة صماء ، وبصر بلا عقل هو جنون مطبق ، وتستطيع أن تجعل هذا الدليل يؤدى مهامه على أحسن ما يرام باتباعك لوازم معينة مثل :

حسن التلقى للمسموع والمنظور والمحسوس .

والتفكير بحرية دون تأثير من الهوى .

والحرص الشديد على ثمرة الأداء العقلى .

وإغناء هذا الجهاز بالعلم المتواصل .

وتستطيع أن لا يؤدى مهامه بشكل طبيعى بمجانبتك اتباع تلك اللوازم . وحتى إذا أدى العقـل مهامـه علـى أحسـن ما يرام وأعطاك حصيلة التفكير بمسألة ما فإنك قد تقف أمام خيارين : أولهما أن تنزل عند مقتضى الحصيلة تعاملا منك مع الأشياء بحرص وموضوعية وسـداد ، وثانـيهما أن ترفض النزول عند مقتضى حصيلة التفكير إصغاء لبقية هوى وتأثرا ببـريق هـوى وتأثرا ببريق شهوة . ففى الخيار الأول تكون متبعا للحق بإقدام لا تبالى معه بشىء ولو كان نفسيا لأنه لا أنفس من اتباع الحق ، وفى الخيار الثانى تكون مفضلا الذى هو أدنى على ما هو خير وهذا ضلال مبين [٢] .

أمـا إعاقة دور العقل فهى معضلة يوقع المغفلون أنفسهم فيها حاسبين أنهم قد أحسنوا التصرف فتراهم لا يسمحون لعقولهم باستقبال شئ من المسموع والمرئى والمحسوس إلا بعد تعكيـره كأن يتلقونه محاطا بحكم مسبق غير صحيح أو محملا بقدر معين من مشاعر الضيق والتذمر والكره والاستثقال .

فكل بالغ من الأنس والجن ، من الذكور والإناث ، ممن أمر الله تعالى ونهاه ، ووعده بإرسـال الـنذر ، وإنزال الكتب ، وآثار آيات التدبير ، فحجة العقل لازمة له ، وإذ أنعم الله

---

[١] الأعراف / ١٧٩ .

[٢] شاكر عبد الجبار : المنهج العلمى للاعتقاد ، مكتبة القدس ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٦٣ .

سبحانه بالعقل عليه ، ومعرفة البيان ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [١] ، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [٢].

٣- **الأمن الاجتماعى** : فإذا كان الجدل والحوار نشاطا عقليا ، إلا أنه يتم فى وسط له شروطه المادية الأساسية ، فهو يتم بين بشر لهم أجسام لها احتياجاتها البيولوجية التى لا قوام لهـا إلا بها ، ومن هنا قيل أن العقل يتعطل عمله إذا كانت المعدة خاوية تماما فترة طويلة ، وأن التفكير يهتز إذا كان جسم صاحبه يعانى من فقر الدم والهزال الشديد ، وهذا وذاك يجعلنا نـؤكد هنا حاجة الإنسان إلى ما يمكن تسميته (بالأمن الاجتماعى) الذى لا يمكن أن يتوافر إلا بتوافر ما يسمى (بالتكافل الاجتماعى) .

ويقصد بالتكافل الاجتماعى فى معناه اللفظى أن يكون أحاد الشعب فى كفالة جماعتهم وأن يكـون كـل قـادر أو ذى سلطان كفيلا فى مجتمعه يمده بالخير ، وأن تكون كل القوى الإنسـانية فـى المجـتمع متلاقـية فى المحافظة على مصالح الآحاد ودفع الأضرار ثم فى المحافظـة على دفع الأضرار عن البناء الاجتماعى وإقامته على أسس سليمة [٣]. ولعل أبلغ تعبيـر جامع لمعنى التكافل الاجتماعى قوله عليه الصلاة والسلام : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) ، وقوله عليه السلام (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

ومن المأثور عن رسول الله ﷺ قوله : (أيما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائعا ، فقـد بـرئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى) [٤] . والعرصة : هى البقعة الواسعة من الأرض ، وأهلهـا هـم أصحابها أو سكانها الذين يقيمون فيها ، فغدت موطنا لهم يعرفون بها أو تعرف بهم ، وينتسبون إليها أو ينتسب إليهم .

وقـد تفرق الناس فى البقاع الأرضية منذ أجيال سحيقة شعوبا وقبائل ، فمن البقاع ما سكنه قبيلة ، ومنها ما سكنه شعب بأسرة ، ويكون من معنى الحديث على هذا : أيما قبيلة أو شـعب أصـبحوا وفيهم جائع ، فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله ، والذمة هى الأمان والعهد والضمان ، وذمة الله هى عهده الذى يعصم لدمائهم وأموالهم ، فكأن الذين أطاعوا شح أنفسهم

---

[١] الأنفال / ٤٢ .
[٢] التوبة / ١١٥ .
[٣] محمد أبو زهرة : التكافل الاجتماعى فى الإسلام ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٥ .
[٤] أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم .

وتخلوا عن رعاية ذوى الحاجة منهم حتى أصبحوا جائعين ، قد نقضوا عهدا بينهم وبين الله ، واستوجبوا به ذلك الحكم الخطير الذى أعلنه رسول الله ﷺ [١] .

ومـــن الواضـــح أن الله سبحانه ، إذ خلقنا من الأرض وكتب لنا الحياة فيها لم يتركنا بمضيعة نهلك فى مجاهلها من الجوع ، بل أودع بطنها وظهرها ، وهواءها وماءها وشمسها ألـــوانا من الثمرات وكنوزا من الخير ظاهرة وباطنة ، ومن البديهى أنه سبحانه لم يجعل ذلك – أو شـــيئا مـــنه – لفئة من الناس دون أخرى ، فالكل عباده وهم فى الحاجة إلى ضرورات الحياة سواء ، ولا فضل فى ذلك الرزق لأحد على أحد [٢] .

يقـــول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [٣].

هكـــذا أرادنـــا الخالق ، وسبحان من لا راد لإرادته ، فالأصل فى الخلق البشرى هو الاخـــتلاف شكلا ولونا ولسانا وقدرة ، والأصل فى الحياة الآدمية هو التنوع والتعدد والتدافع بين الناس وسائر الخلق ، والأصل فى عطاء الله هو التباين المتداخل فى الأرزاق ، ومن هذه الأصـــول – رغم قيامها على الاختلاف والتباين والتدافع – يقوم التكامل فى المجتمع الإنسانى وتـــدور فيه عجلة الحياة الآدمية تماما مثل تروس الساعة التى يدور كل ترس منها فى اتجاه مغاير لاتجاه الآخر لتدور جميعها بالتوالى حتى تتحرك العقارب وتصنع الزمن [٤] .

٤-**الأمـــن الفكـــرى** : وذلك بأن يكون للإنسان الحق فى أن يفكر تفكيرا مستقلا فى جمـــيع ما يكتنفه من شئون وما يقع تحت إدراكه من ظواهر ، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير . وقد أقر الإسلام هذا الحق فى أوسع نطاق فمنح كل فرد الحق فى النظر والتفكير وإبداء رأيه عن أى طريق شاء [٥] .

ويـــدخل فى الحرية الفكرية التى حرص الإسلام على توفيرها ، ما يسمونه بالحرية العلمـــية وحـــرية التفكير العلمى ، وهى أن يكون لكل فرد الحق فى تقرير ما يراه فى صدد ظواهـــر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات والإنسان ، والأخذ بما يهديه إليه تفكيره وما يقتنع

---

[١] البهى الخولى : الثروة فى ظل الإسلام ، دار القلم، الكويت ، ١٩٨١ ، ص ٢١٧ .
[٢] المرجع السابق ، ص ٢١٨
[٣] البقرة / ٢٥١ .
[٤] أحمد سعيد : لا للفقر فى ظل القرآن ، دار الهلال، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال(٤٣٣) يناير ١٩٨٧ ، ص ٧٤.
[٥] على عبد الواحد وافى : الحرية فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، سلسلة اقرأ (٣٠٤) ، يوليو ١٩٨٠ ، ص ٧٩ .

بصـــحته من نظريات والتعبير عن رأيه بمختلف وسائل التعبير . فالإسلام لم يحاول مطلقا أن يفرض نظرية علمية معينة بصدد أية ظاهرة من هذه الظواهر ، ولم يعرض القرآن ولا السنة الشـــريفة لتفاصيل هذه الأمور ، وكل ما فعله القرآن فى هذه الناحية أنه استحث العقول على النظـــر فى ظواهر الكون وحفز الناس على التأمل فى هذه الشئون واستنباط قوانينها الهامة ، وأثـــار فـــى نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التى لا تثير الانتباه بطبعها لتكرار حدوثها وسيرها على وتيرة واحدة وإيلاف الناس النظر إليها كشئون الليل والنهار والشمس والكواكب وتـــتابع الفصـــول وتناســـل الحـــيوان وتكاثر النبات وطفو بعض الأجسام على الماء ونزول المطـــر .. وما إلى ذلك من مسائل العلوم والفنون ، فبين لهم أن هذه الأمور جديرة بالتأمل ، وأن فيها مجالا كبيرا للنظر والعبرة والبحث العلمى [١] .

ولا أدل علـــى ذلـــك من أن القرآن فى إجابته عن سؤال وجه إلى الرسول ﷺ عن مـــراحل القمـــر وأسباب تزايد قرصه وتناقصه ، قد تحاشى أن يدخل فى تفاصيل هذه الأمور الفلكـــية وقوانينها ، حتى لا يفرض نظرية علمية على العقول ، وحتى لا يحجر على الأذهان النظـــر فـــى هـــذه الأمور ، واكتفى أن يذكر بعض فوائد القمر ، وأنه يحدد مواقيت الشهور والأيـــام التى تؤدى فيها شعائر الحج . وفى هذا السؤال يقول الله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُـــلْ هِـــيَ مَوَاقِـــيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) ، فكأنه يقول لهم يكفى أن تعلموا فيما يتعلق بصلة الأهلة بشئون الدين أنها مواقيت للناس فى الشهور الأولى والصيام وشعائر الحج ، أما ما وراء ذلك مـــن أسباب تزايد قرص القمر وتناقصه وخسوفه أحيانا أو حجبه عن النظر وعلاقته بالشمس والأرض .. أمـــا هـــذه الأمور وما إليها فأترك لعقولكم كامل الحرية فى بحثها والاهتداء إلى كنهها وأسبابها [٢] .

وبهذه الروح القرآنية ، بارك الرسول ﷺ مبعوثه إلى اليمن (معاذ بن جبل) حكمته مرتين :

الأولـــى : حـــين أدرك أن مـــن المحـــتمل أن تعرض له وللمسلمين قضايا ومواقف ومشكلات لم يتضمن القرآن ولا السنة ذكرا لها ، ولا حكما فيها .

والثانـــية ، حـــين جعـــل اجتهاده ورأيه تجاه هذه القضايا بديلا للقرآن وللسنة فقال : (أجـــتهد رأيى ، ولا آلو ..) إجابة عن سؤال الرسول له : (ماذا يفعل إذا لم تجد الحكم فى

---

[١] المرجع السابق ، ص ٨١ .
[٢] المرجع السابق ، ص ٨٣ .

كتاب الله ولا فى سنة رسوله) [١]. ولم يقل (معاذ) مستنكرا : وكيف يخلو القرآن والسنة من قضية تهم المسلمين ، والله سبحانه يقول : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) . ولم يقل معاذ أنه سيكلف القرآن والسنة ضد طبعها حتى يولد الحكم المنشود ، بل قال : (أجتهد رأيى لا آلو) مما أرضى الرسول عنه وحياه قائلا : (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله) .

٥- **السببية** : ومن خلال التمعن فى كتاب الله نجد كيف منحت آياته البينات العقل المسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود .. تربط ، وهى تتأمل وتبحث وتعاين وتفكر ، بين الأسباب والمسببات .. تسعى إلى أن تضع يدها على الخيط الذى يربط بين الظواهر والأشياء فى هذا الحقل أو ذاك ، وفى هذه المساحة أو تلك . لقد أراد القرآن الكريم أن يجتاز بالعقل العربى مرحلة النظرة التبسيطية ، المسطحة ، المفككة التى تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت متقطعة معزولة منفصلا بعضها عن بعض . وهى خلال ذلك لا تملك قدرة على الجمع والمقارنة والقياس والتقاط عناصر الشبه وعزل عناصر الاختلاف . لا تملك إمكانية التركيب والاختزال والتركيز للوصول إلى الدلالات النهائية للظاهرة من خلال معاينة ارتباطاتها وعلاقتها بالظواهر الأخرى [٢] .

ولقد تمكن القرآن الكريم بطرقة المستمرة على العقلية التبسيطية أن يعيد تشكيلها لتبعث من جديد بالصيغة التى أرادها لها : عقلية تركيبية ، تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التى تطل من فوق على حشود الظواهر بحثا عن العلائق والارتباطات ، ووصولا إلى الحقيقة المرتجاة . بل إن إحدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعه من أقصاها إلى أقصاها هى : التأكيد على ضرورة إعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه ، إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل المؤمن لن يكون قادرا على التحقق بالقناعات الكافية ، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة فى الطبيعة والعالم والوجود أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دوما عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق [٣] .

---

[١] خالد محمد خالد : دفاع عن الديمقراطية ، دار ثابت ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢٣٣ .
[٢] عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٤٩ .
[٣] المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

ومبدأ ثبات السنن الإلهية ينفى عن العقلية الإسلامية ما يقال من تعطيلها للأسباب ، فكما لا تتعلق المشيئة العليا بنقض سننه تعالى فى خلقه ، لا تتعلق بنقض سائر سننه الثابتة التى يجرى عليها نظام الكون ، ومنها قانون السببية وقوانين الطبيعة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ [١] ، لكنه سبحانه لم يشأ إلا أن تمضى سننه الكونية ثابتة مطردة ، لا تنقضها المشيئة العليا [٢] .

ألا وأن المؤمنين منا لا يلقون بأيديهم إلى التهلكة ، ولا يتصورون أن التوكل على الله يعطل الأسباب كما يزعم فيهم البعض بقولهم " أننا إذا توكلنا على الله فلن نخاف الحرب ولا القنبلة الذرية ولا المرض . الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع ، وهو الذى خلق العقرب والسم والوردة ، وهو الذى ينشر العبير وينشر السم فى العروق . هو مناط الهلاك والنجاة لا راد لقضائه ، هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته ".

ويقود أحدنا سيارته ، بعد أن يطمئن إلى كفاية الوقود فيها وسلامة أجهزتها وعجلاتها ، لا يكل هذا كل إلى الله الذى عليه يتوكل المؤمنون ، بل يسأله تعالى السلامة من أخطار الطريق ، بعد كل الحرص عليها والأخذ بأسبابها . ومنهم من يسافر على الطائرة ، والله معه ، ثم لا يخطر على باله أن يقذف بنفسه منها ، وهى فى الجو ، دون مظلة واقية . ومنهم من يركب السفينة ، باسم الله مجريها ومرساها ، فلا يستغنى عند الخطر عن حزام النجاة وقاربها ، غير مبال باليم مع جهله بالسباحة . فى هذا كله يأخذ المسلمون بالأسباب ويستعينون بالله [٣] .

٦- **المعرفة** : فالمحاورة والمناقشة والمجادلة وما إلى ذلك من عمليات عقلية مشتركة لحمتها الأساسية (معلومات) لابد أن تكون صادقة ، وآيات القرآن الكريم مليئة بالحث على ضرورة توافر هذا الشرط الهام ، فالإنسان الذى لا تتوافر لديه المعلومات اليقينية ربما يكون معذورا فى انحرافه عن طريق الحق ، أما إذا أتيحت له الفرصة للوقوف على حقيقة الأمر ، فلا عذر له بعد ذلك ، بل إن الإنسان مطالب أن يسعى وراء المعرفة الحقة حتى يستبين طريق الحق ، ولا يعتذر بالجهل إلا إذا كان الحصول على المعلومات الحقيقية أمرا فوق

---

[١] الشورى / ٣٣ .
[٢] عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية ، دراسة قرآنية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ١٤٠ .
[٣] المرجع السابق ، ص ١٤١ .

طاقته : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [١] . بل يصل الأمر بالنسبة لمن يسير فى طريق الهوى رغم توافر المعلومات الصحيحة بأن يوصف من لدن الله عز وجل بالظلم ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٢] .

وتجئ الآيات صريحة مباشرة ، بأن الجدل ينبغى أن يكون بناء على معرفة وعلم ، وسخرية من هؤلاء الذين يجادلون بغير علم ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [٣] . وقال عز وجل : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [٤] ، وبين أن الضمير الدافع إلى الخير ، الوازع عن الشر ، المراقب له ، الحريص على مرضاته ، هو ضمير العلم المستنير الخبير بربه : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٥] .

والعلم الذى يقبل المسلم عليه وتستفتح أبوابه بقوة ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب ، هو المقصود بمطلق المعرفة التى لا يشترط فيها إلا سلامة المنهج وشرف الغاية فكل ما يوسع آفاق النظر ، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان ، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود ، ويفتح له آمادا أبعد من الكشف والإدراك ، وكل ما يتيح له السعادة فى العالم ، والتحكم فى قواه ، والإفادة من ذخائره المكنونة ، ذلك كله علم ينبغى التطلع إليه والتضلع فيه ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه .. وهذا الشمول دلت عليه الآيات والسنن [٦] .

ويخطئ المسلم إذا ظن أن حسن الحوار والجدل يكفيه فيها أن يقتصر على العلم الدينى وحده ، ووجه الخطأ هنا أن علوم الكون والحياة ونتائج البحث المتواصل فى ملكوت السماء والأرض لا تقل خطرا عن علوم الدين المحضة ، بل قد يرتبط بها من النتائج ما يجعل معرفتها أولى بالتقديم من التعمق فى علوم الشريعة ، وحسبنا أن القرآن الكريم عندما

---

[١] البقرة / ١٢٠ .
[٢] البقرة / ١٤٥ .
[٣] آل عمران / ٦٦ .
[٤] العنكبوت / ٤٣ .
[٥] الزمر / ٩ .
[٦] محمد الغزالى : خلق المسلم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٣١٧ .

نـــوه بفضـــل العلـــم وجلال العلماء إنما عنى العلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق، وإنما عنى العلم الذى ينشأ من النظر والنبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى [١] .

قـــال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْـوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [٢] . وقال : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [٣] .

٧- **المســئولية** : ولكيلا يبغى الناس بعضهم على بعض فى موارد الفكر والاجتهاد داخـــل الحـــدود العامـــة للعقيدة الدينية طرح الإسلام نظرية أخلاقية فريدة فى أصل الطبيعة الإنسانية ليفتح باب المغفرة أمام الإنسان ، هذه النظرية تقوم على افتراض (الضعف) أساسا للطبـــيعة الإنسانية ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [٤]. ومن تقرير الضعف أساسا للسلوك الإنسانى ولكيلا ينصب الناس أنفسهم حججا بعضهم على بعض ، شرع الإسلام مـــبدأ أخلاقيا عاليا آخر هو المسئولية الأخلاقية فى الفرد نفسه ليحملها طوعا واختيارا بعد أن تبـــين له الحق [٥] : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [٦] ، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَـــاكِراً وَإِمَّـــا كَفُوراً﴾ [٧] ، وبهذا أسقط حجية الناس بعضهم على بعض ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَـــيْكُمْ أَنْفُسَـــكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [٨] . ومن إسقاط حجية الناس بعضهم على بعـــض تبلور مبدأ المسئولية الفردية على السلوك بما لا يحتمل الشك والارتباك ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْـــزَمْنَاهُ طَائِـــرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [٩] . ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [١٠] .

---

(١)

(٢) فاطر / ٢٧ ، ٢٨.

(٣) الروم / ٢٢ .

(٤) النساء / ٢٧ .

(٥) محمد جواد رضا : الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٩ .

(٦) البقرة / ٢٥٦ .

(٧) الإنسان / ٣ .

(٨) المائدة / ١٠٤ .

(٩) الإسراء / ١٣ ، ١٤ .

(١٠) البقرة / ١٢٣ .

إن تـــرجمة هـــذا كله بالنسبة لموضوعنا أن الإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجـــرى على سنة آبائه وأجداده ولا يقبل منه أن يلغى عقله خضوعا لمن يسخره باسم الدين فـــى غيـــر مـــا يرضى العقل والدين ، ولا يقبل منه أن يلغى عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغـــيان الأشداء ، ولا يكلفه فى أمر من هذه الأمور شططا لا يقدر عليه ، إذ القرآن الكريم يكـــرر فى غير موضع أن الله لا يكلف نفسا ما لا طاقة لها به ، ولا يطلب من خلقه غير ما يســـتطيعون . ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِـــينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [١] .

إن الإسلام يقول : عليكم أن تبروا بالآباء ، ولكن البر معهم غير الضلال معهم على غيـــر بصيرة ، والعقلاء هم الذين يعرفون موضع هذا وموضع ذاك . وعليكم أن تسألوا أهل الذكـــر إن كنـــتم لا تعلمـــون ، ولكن أهل الذكر لا ينتفعون بذكرهم ولا ترجى منهم التذكرة لغيـــرهم ، ومن لم يكن من أهل الذكر فليس بعسير عليه أن يكون من المميزين بين الصادقين منهم والمنافقين وبين سيرة الرشد والاستقامة وسيرة الغواية والاعوجاج [٢] .

كمـــا يؤكد علينا الإسلام أن علينا طاعة ولاة الأمر منا ، ولكن لا طاعة لمخلوق فى معصـــية الخالـــق ، ولا خيـــر فى فتنة يضرمها العصيان على غير بصيرة ، ومن لم تكن له القدرة على الطاعة ، ولم يكن فى عصيانه أمان ، فله الهجرة كمتسع يأوى إليه ما استطاع .

٨- **الصـــدق** : فشطر كبير من العلاقات الاجتماعية والمعاملات الإنسانية يعتمد على شـــرف الكلمـــة فـــإذا لم تكن الكلمة معبرة تعبيرا صادقا عما فى نفس قائلها ، لم نجد وسيلة أخرى كافية نعرف فيها إرادات الناس ونعرف فيها حقيقة أخبارهم :

كيف يوثق بنقل المعارف والعلوم إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى ؟

كـــيف يوثـــق بنقل الأخبار والتواريخ إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التى يقوم عليها بناء المجتمع ؟

كيف يوثق بالوعود والعهود ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس ؟

---

[١] البقرة / ٢٨٦ .

[٢] عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، دار القلم ، القاهرة ، ط ١ ، ص ٣٢ .

كيف يوثق بالدعاوى والشهادات ودلائل الإثبات القولية ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس [١] ؟

وقد قسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق ، فقال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [٢] . والإيمان أساسه الصدق ، والنفاق أساسه الكذب فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما يحارب الآخر . وأخبر الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٤] . فالذى جاء بالصدق هو من شأنه الصدق فى قوله وعمله وحاله ، فالصدق فى الأقوال ، استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها ، والصدق فى الأعمال ، استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس على الجسد ، والصدق فى الأحوال ، استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص ، واستفراغ الوسع ، وبذل الطاقة . ومن هنا فقد أوصى الإسلام أن تغرس فضيلة الصدق فى نفوس الأطفال حتى يشبوا عليها وقد ألفوها فى أقوالهم ، فعن عبد الله بن عامر قال : دعتنى أمى يوما ورسول الله ﷺ قاعد فى بيتنا ، فقالت : تعال أعطيك ، فقال لها ﷺ : (ما أردت أن تعطيه) قالت : أردت أن أعطيه تمرا ، فقال لها : (أما أنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة) [٥] ، وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من قال لصبى تعال ، هاك .. ثم لم يعطه فهى كذبة) [٦] .

فها هنا نرى كيف يعلم الرسول ﷺ الأمهات والآباء أن ينشئوا أولادهم تنشئة يقدسون فيها الصدق ويتنزهون عن الكذب . ولو أنه تجاوز عن هذه الأمور وحسبها من التوافه الهينة لخشى أن يكبر الأطفال ، وهم يعتبرون الكذب ذنبا صغيرا ، وهو عند الله عظيم . وقد فشت الصراحة فى تحرى الحق ورعاية الصدق حتى تناولت الشئون المنزلية الصغيرة [٧] .

---

[١] عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : الأخلاق الإسلامية ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج١ ، ص ٤٨٥ .
[٢] الأحزاب / ٢٤ .
[٣] المائدة / ١١٩ .
[٤] الزمر / ٣٣ ، ٣٤ .
[٥] أبو داود وأحمد .
[٦] محمد الغزالى : خلق المسلم ، ص ٣٥ .
[٧] المرجع السابق ، ص ٣٦ .

الآثار التربوية :

على الرغم من تباين واختلاف التعريفات التى ساقها المربون والفلاسفة للتربية ، إلا أن مما يتفق عليه على وجه التقريب أنها تؤدى بالضرورة إلى عملية تغيير فى شخصية الإنسان ، ويكون الاختلاف هو فى مدى التغيير ومجالاته ودوافعه وأغراضه .

كذلك مما هو ضرورى الاتفاق عليه أن عمليه التغيير لابد أن تتبنى على (علم) و(معرفة) فإذا تأكد لنا أن العلم وإن المعرفة ليسا مجرد (كم) من المعارف والمعلومات والحقائق ، إنما هو – بالإضافة إلى ذلك – منهج وطريقة ، يصبح المعول الأساسى فى عملية التربية هو مسألة (المنهج) لا بالمعنى المتداول بين اختصاصى التربية ، وإنما بالمعنى المتداول بين علماء المنطق ومناهج البحث .

ولهذا فقد كان اختيارنا لقضية الجدل والحوار ، إنما هو بدافع منهجى علمى ، مما يحتم علينا بعد أن جلنا فى صفحات متفرقة من الفكر الإسلامى فى مصدره الأساسى وهو القرآن الكريم بحثا عن صور وأساليب الجدل والحوار وكذلك محاولة الكشف عن بعض الشروط والأسس التى ينبغى أن يقوما عليها ، أن نتوقف بعض الشىء فى محاولة أخرى للكشف عما تؤدى إليه عملية التربية التى تقوم على الجدل والحوار من آثار إيجابية فى تربية الشخصية المسلمة مما يعينها على أن تكون بالفعل طاقة عمل وبناء ، وقوة تطوير وتقدم .

١- **الفهم والاقتناع** : فالتغير فى السلوك لا يمكن أن يستمر بمجرد القهر الخارجى والإرغام على إتيان فعل من الأفعال ، وإنما هو ذلك الذى ينبثق من (جوانبه) الإنسان ، وهذا لا يتم إلا عن طريق الفهم والاقتناع ، يقول عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [١] .

ما أكثر آيات الله تعالى ، فمنها المشاهد المبثوث فى هذا الكون العظيم ومنها المسطور المفصل فى كتابه الخالد ولكنها لقوم يفهمون باهتمام وتطلع وحرص وليست لقوم يستلفت عقولهم ساقط الكلام وتافه المتاع وحصى الطريق فيما هم لا يعيرون كلام الله اهتماما ولا يحركهم إلى ما وراءه تطلع ولا يتلمسون مصيرهم الأبدى بحرص [٢] .

---

[١] الأنعام / ٩٨ .
[٢] شاكر عبد الجبار : المنهج العلمى للاعتقاد ، ص ١١٢ .

والإنســـان الذى يريد أن يفهم حقا ، ينظر إلى النفس الواحدة مثلا كيف تتكاثر ، فخلية تستودع صلب الرجل ثم تستقر فى رحم أنثى فتتلاقح ويكون من بعد إنسان آخر أو أنثى وفق قانون الله الضابط لتوازن الجنس البشرى ، وبهذا المنوال يتوالى التكاثر فيكون الناس بصفات تفصـــيلية تتباين وتتشكل بين المرء وأبيه والأم وبنتها والأسر والقبائل والشعوب والأمم حتى يكون المجتمع البشرى بالنسق الذى يتناغم مع حياة الأرض على أروع طرز .

إنسان ينظر إلى خلق الله كيف تكاثر لدى البشر من نفس واحدة فيحس بعظمة الخالق عـــز وجل موليا وجهه تلقاء منهجه استمساكا به وخضوعا ، لهو الفطن ذو الفهم الذى تربى إسلاميا .

وإذا كـــان الله عز وجل قد أنكر على الإنسان الجدال عندما يكون مما رآه فاحشة فى الحـــق الجلى والآيات البينات فيما تعبر عنه الآية الكريمة : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَـــا يُسَـــاقُونَ إِلَـــى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [١] ، فإن جدال الإنسان عندما يكون عن حاجة لاقتـــناع ، فهـــو أمـــر مطلوب ومرغوب ، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَـــادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [٢] . ﴿ وَلا تُجَادِلُـــوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [٣] .

وقد جادلت امرأة مسلم ، رسول الله ﷺ فى زوجها حين ظاهر منها فلما لم تجد لدى رســـول الله مـــا يقـــنعها ويفـــرج كربها اشتكت إلى الله ، فسمع سبحانه قولها ونزلت آيات المجادلة : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّـــهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ﴾ [٤] .

ويـــروى عن (عمر) رى الله عنه ، أنه ﷺ كان إذا دخلت عليه تلك التى جادلته ، أكرمها وقال : قد سمع الله لها [٥] .

---

[١] الأنفال / ٦ .
[٢] النحل / ١٢٥ .
[٣] العنكبوت / ٤٦ .
[٤] المجادلة / ١- ٢ .
[٥] عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ، ص ٩٦ .

والدعوة بالحكمة هى التربية التى تعتمد على وسائل الإقناع الفكرى المنطقى الحكيم ، بالحجج والبراهين المثبتة للحقائق ، وتكون الحكمة باتخاذ الأساليب الملائمة للحالة الفكرية والنفسية التى عليها المستهدفون بالتربية .

وللمربين فى هذا المجال أصول وقواعد استخلصوها من تجارب الحياة ومن الدراسات النفسية والنظرية والتطبيقية ، ونلاحظ أن الإسلام يدعو إليها بشكل عام ويعرض طائفة من جزئياتها ، كما إنه لم يفته أن يقدم لنا من أمثلتها نماذج رفيعة قام بها النخبة الممتازة من الدعاة إلى الله ، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ونماذج أخرى قام بها بعض المربين الذين تخرجوا فى مدارس الدعوة التى أسسها الرسل كالنموذج التربوى الذى قصه لنا القرآن عن الحكيم لقمان فى موعظته لابنه ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ، وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) .

فمن حكمة لقمان فى موعظته لأبنه أنه حينما نهاه عن الشرك بالله قرن له ذلك بالدليل المقنع المؤكد ، فقال له : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ومن بديهات العقول أن الظلم قبيح ، وعاقبته وخيمه ، ومن أدرك هذه الحقيقة اكتسب قناعة كافية تجعله يخشى خشية كبيرة من الشرك بالله (٢) .

وإذا كانت الفكرة التى تقوم على الاقتناع والفهم هى الأقرب إلى قلب ووجدان وعقل الإنسان ، فإنها أيضا ترسخ فى نفسه رسوخا يجعلها لا تهتز للعوامل الطارئة ، ويتحمس .

٢- **النمو العقلى** : فمن شأن الحوار والجدل أن يتيح للمتعلم الفرصة لأن يقلب الفكرة على وجوهها المختلفة ، وتحتك أفكاره بأفكار الآخرين ، وعندئذ قد يكتشف جوانب ناقصة كانت خافية عليه ، وقد يكتشف أخطاء كان يظنها صوابا ، فيعمد إلى تصحيحها ، وقد يكتشف أن الرأى الآخر على درجة من الجودة أو الصواب والصحة أكثر من رأيه هو ، وكل هذا من شأنه بطبيعة الحال أن يتيح له فرصا متعددة للنمو العقلى والتطور الفكرى .

وإذا كانت عملية النمو عملية إيجابية ، كان من الضرورى أن تتبنى على أسس سليمة ، ومن هنا جاءت حكمة الله فى هذا التشديد المتكرر على ضرورة الحذر من الظن

---

(١) لقمان / ١٢ - ١٣ .
(٢) الميدانى : أسس الحضارة الإسلامية ، ص ٣٥٢ .

وأهمية التثبيت مما نتلقاه من أفكار وآراء ونظريات ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [١] ، وهى مسئولية ضخمة ، يبرز التعبير عظمتها بإفراد السمع والبصر والفؤاد فى مبدأ الأمر ليكون كل منها مسئولا على حدة ، ثم جمعها كلها بعد ذلك وإشراكها فى المسئولية ، بهذا الجمع والتوكيد : ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ ، وذلك كله ليحس الإنسان بعظم التبعة وهو يقدم على الأمر ، فلا يأخذ الأمور باستخفاف ، ولا يأخذها بلا تثبت وهو عنها مسئول [٢] .

ولا شك فى أن الامتثال على دوام التفكر فى نواميس الكون كما يأمرنا القرآن الكريم من شأنه أن يطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم . ذلك أن نواميس الكون تجرى فى دقة النظر وانضباط الأحكام . إن دورة الأرض ودورة الشمس ودورة الأفلاك ليست مضبوطة بالساعة ولا بالدقيقة ولا بالثانية ولا بغيرها .. ولكنها مضبوطة بسرعة الشعاع الذى يقطع ١٨٦ آلف ميل فى الثانية . والنظر فى هذه الدقة المذهلة يعود العقل على أن يدقق ، فكل خلل بسيط فى التفكير أو التقدير ينتج عنه أخطاء جسيمة ، لو كان يحدث مثلها فى الكون لانفلت عقده وتهاوى ما فيه من أفلاك ، والعقل عليه – حين يرى تلك الدقة والترابط – أن يحاول ضبط أفكاره وربطها ، والوصول إلى الكليات التى تربط الجزئيات وتحكمها كما يرى فى نظام الكون الكبير [٣] .

كذلك فإن الحرص الذى لاحظناه من التوسل بـ (السؤال) فى الحوار والجدال من شأنه أيضا أن يكثر فرص النمو العقلى للمتعلم ، يقول عز وجل حاكيا عن إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [٤] .

إن الفكرة الشائعة أن مثل هذا السؤال إذا جاز فى القضايا الفكرية والعلمية ، فليس بجائز فى المقررات الدينية التى تقتضى التسليم المطلق . بل إن فينا من يتصورون أن مجرد مناقشة المتدين لأحد ممن يتكلمون باسم الإسلام ، جرأة وضلال . لكن هذه الآيات الكريمة

---

[١] الإسراء / ٣٦ .
[٢] محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، ج١ ، ص ٩٣ .
[٣] المرجع السابق ، ص ٩٤ .
[٤] البقرة / ٢٦٠ .

تـؤكد لـنا بما لا يدع مجالا للشك أن الله سبحانه لم يغضب على إبراهيم حين سأل ما سأل ، ولا جـرده مـن صـفة النـبوة وشرف المكانة ، بل كانت كلمة الله ردا على سؤال إبراهيم ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

وفـي جـواب إبراهيم اعتراف صريح معلن ، بأن قلبه لم يكن مطمئنا ، بل أعياه أن يتمـثل كيفـية إحـياء الله الموتـى ، فلم يكتم فى نفسه ما خامره من قلق ، بل طلب الرؤية والمشاهدة التماسا لطمأنينة القلب ، والراحة من نوازع القلق وهواجس الحيرة [١] .

ومـن الملاحـظ فى كل المواقف التى استخدم القرآن فيها الحوار والجدل عن طريق طـرح الأسئلة ، إن الله سبحانه وتعالى كان يتجه بها إلى المجالات العملية ، فيما يريد الناس أن يحصـلوا علـيه مـن علـم ، وفيما يريدون أن يثيروه من سؤال .. على أساس التوعية الفكـرية ، وهـو أسلوب تربوى فعال ، ذلك أن القضايا النظرية المحضة من القضايا التى لا فائـدة منها للحياة بشكل مباشر أو غير مباشر ، وهكذا فى الأمور الكبيرة التى تدخل فى باب الفضول الذى لا جدوى منه ولا منفعة ، مما يجعل صرف الجهد فيه ، تضييعا للعمر وإهدارا للطاقـة لأن قـيمة الفكر ، إنما هى ، بمقدار ما يحقق من نتائج عملية تفيد الإنسان فى حياته وبعد مماته ، أو من نتائج نظرية تتعلق بالنتائج العملية [٢] .

إن مثل هذا الاتجاه التربوى الذى نستوحيه من الآيات الكريمات التى صرفت الأسئلة عمـا لا ينفع للتدليل على مدى العلاقة بين المعرفة وبين الحياة ، حتى لتعتبر المعرفة البعيدة فـى الحياة شيئا ميتا ، كما هى الحياة عندما تموت . إن مثل هذا الاتجاه فى التربية ، يستطيع أن يقـود الحياة الإسلامية إلى الاهتمام بالجوانب العملية حتى فى الفكر ، ويخلصها مما خلفته عصـور الانحطـاط فـى وعيها وأسلوبها من التركيز على الجوانب النظرية ، حتى وصلت أوضـاعها إلى المدى الذى لم تجد لديها فيه ما يملا فراغها سوى المشاكل اللفظية التى تغرق فيها طاقاتها الفكرية .

٣- **الإثـراء المعرفى** : فالنمو العقلى الحاصل للمسلم نتيجة الجدل والحوار كأسلوب تـربوى فى القرآن ، إنما يختص به هو كفرد ، أما ما نشير إليه فى الجزء الحالى ، فهو ما

---

[١] مقال فى الإنسان ، ص ٩٢ .
[٢] فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ١٩٧ .

يتصل بالمجال المعرفى والعلمى نفسه على اتساع المجتمع ، والقضيتان مرتبطتان لكنهما ليستا متطابقتين .

أن حقائق التاريخ الفكرى والحضارى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن العلم ينمو والمعرفة تزدهر بالقدر الذى يحدث فيه تفاعل بين الأفكار وجدل بين النظريات وتأثير بين أصحاب هذه القضية وأصحاب تلك .

ولأجل أن يتم هذا حرص الإسلام على أن ينهض كل جيل بتعليم الجيل التالى ما وصل إليه من تجارب وما استفاده من معارف ، وأن يرشد العالمون غير العالمين ، وبهذا تتقدم الإنسانية فى سبيل الرقى والكمال [١] . ومن الضمانات التى وضعها القرآن لتصل هذه المعارف إلى الأسماع بعيدة عن التضليل والتحريف :

- ألا يكتم عالم ما اهتدى إليه من معارف وعلوم ، فإن هذه المعارف ليست ملكا خالصا له وإنما هداية من الله وبتوفيق منه ، والحديث الشريف يقرر أنه (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) [٢] . والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [٣] .

- أمانة العلم ينبغى أن تكون فى المحل الأول من الاعتبار بحيث ينقل العالم معلوماته واضحة دقيقة لا لبس فيها ولا تحريف ، ولا زيادة ولا نقصان ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٤] . وقال جل شأنه فى بنى إسرائيل : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [٥] .

- العلم حق مشاع للإنسانية جمعاء ، وما بعث الله الرسل إلا معلمين مرشدين سواء بالكتب المنزلة أو القدوة الطيبة .

---

[١] على عبد العظيم : فلسفة المعرفة فى القرآن ، ص ٢٤ .
[٢] رواه الترمذى وحسنه .
[٣] البقرة / ١٥٩ .
[٤] البقرة / ٧٥ .
[٥] المائدة / ١٣ .

والإنسان المسلم لا يستطيع كما بينا أن يحسن الجدل والحوار إلا إذا كان على علم ، وهو لا يستطيع أن يكون على علم إلا إذا أحسن استخدام ما منحه الله عز وجل من أدوات العلم أن أجل تكريم كرم الله به بنى آدم ، وهو أنه سبحانه منحهم أدوات التعلم والتعرف على حقائق الأمور ، وصفات الأشياء وخصائصها ، وذلك ليتابعوا فى حياتهم بحثهم العلمى السليم وليكتشفوا أسرار هذا الكون الدالة على عظمة خالقه حتى يصلوا إلى معرفة عظيم صفات الله وجليل حكمته ، ومعرفة ما يجب عليهم نحوه من طاعة وعبادة وشكر ، وحتى يحسنوا الانتفاع مما بث الله لهم فى هذا الكون من قوى وخيرات ، كما أذن لهم ، دون إفساد فى الأرض ، أو إضرار بالنفس أو أذى أو ظلم وعدوان [١] .

أما الذين يعطون أدوات المعرفة التى وهبهم الله إياها ، أو يستخدمونها فى حدود ظواهر الحياة الدنيا ، ثم لا ينتقلون من ذلك إلى معرفة خالقهم ورازقهم ومفيض النعم الظاهرة والباطنة عليهم ، ولا يؤمنون به ، ولا يعبدونه ولا يشكرونه ، فأحرى بهم أن يقال عنهم صم وبكم وعمى فهم لا يعقلون ، وذلك لأنهم قد عطلوا هذه الأدوات التى منحهم الله إياها عما خلقت من أجله ، فهم وفاقدوها سواء ، وأولئك شر الدواب عند الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [٢] ، وأولئك هم المحكوم عليهم بالعذاب الدائم فى جهنم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [٣] .

وإنما كانوا أضل من الأنعام لأن لديهم أدوات المعرفة فعطلوها عما خلقت من أجله ، أما الأنعام فإنها لم تمنح الأداة الكبرى للمعرفة وهى العقل ، لذلك فهى غير مسئولة عن شئ ليس لديها أداته [٤] .

ولا شك فإن استقراء بسيطا للتاريخ فى الحضارة الإسلامية ، يمكن أن يقدم لنا مئات الأدلة والبراهين المؤكدة لهذه المقولة : حيثما توافر جدل وحوار ، فهناك ثراء معرفى وتقدم علمى .

---

[١] الميدانى : أسس الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨٨ .
[٢] الأنفال / ٢٢ .
[٣] الأعراف / ١٧٩ .
[٤] أسس الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨٩ .

٤- **الأخلاقية** : فللمسئولية الأخلاقية فى الإسلام عدة شروط لو تأملناها ، فسوف نجد أن أسلوب التربية القائم على الحوار والجدل ، وسيلة أساسية تسهم إلى حد كبير فى توفير هذه الشروط مما يجعلنا نثق بأن هذا الأسلوب له دوره الفعال والنشط فى التربية القائمة على الأخلاق الإسلامية .

وعلى سبيل المثال ، فمن أول شروط المسئولية الأخلاقية فى الإسلام ، أن يكون صاحب العمل أهلا لتحمل المسئولية ، وقد حدد الشرع مظاهر (الأهلية) فى العقل والبلوغ . ففاقد العقل تسقط عنه المسئولية تماما ، أما البلوغ ، فقيمته أنه يتيح فرصة طويلة للمربين من أولياء أمور ومعلمين وآباء أن يقوموا بواجبهم تجاه إنضاج الطفل وتنشئته وتدريبه وتربيته على كل ما من شأنه أن ينمى عقله ويفتح مداركه ويوسع أفقه ، ذلك أن المسألة ليست مجرد امتلاك للعقل ، وإنما هى - بالإضافة إلى ذلك - ضرورة جعله قادرا على فهم الشريعة والتدبر فى جوانب الكون التى دعا إليها الله عز وجل ، والوعى البصير بالتكاليف وعاقبة تركها .

ومن شروط المسئولية كذلك : أن يكون العمل إراديا ، ولعل أفضل تدريب على ممارسة الإنسان لحرية إرادته ، و ذلك الحرص الذى أوضحناه من ضرورة ألا يتم الحوار والجدل تحت أى صورة من صور الإكراه والقسر ، ففى مواقع معينة فى القرآن الكريم تشتد لهجة الوحى فى التحذير من الإكراه أو القسر فى القضايا الإيمانية : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [١] .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : " .. ولو شاء ربك يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم فى الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ولكن حكمة الله فيما يفعله تعالى كقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ ، ولهذا قال تعالى : أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ .. أى تلزمهم وتلجئهم حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، أى ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء " [٢] .

---

[١] يونس / ٩٩ .

[٢] عن : محمد جواد رضا : الفكر التربوى الإسلامى ، ص ١٠ .

والشـــرط الثالث هو أن تكون نية الإنسان وغايته المقصودة له من عمله الإيجابى أو الســـلبى ما ينتج عن العمل فعلا من خير أو شر [١] . فإذا كان لصاحب العمل نية أخرى غير ذلـــك ، فـــإن المسئولية الحقيقية عند الله تكون وفق نيته وغايته دون ظاهر السلوك وما ينجم عـــنه ، أمـــا الســـلوك الظاهر فيكون عندئذ من قبيل العمل الملغى ، وتكون نتائجه من قبيل القضاء والقدر المحض .

ولـــذلك تلغـــى عـــند الله أعمال المرائين والمنافقين مهما كان مظهرها صلاحَ وخير ويحاســـبون علـــى نياتهم وغاياتهم التى كانوا يضمرونها فى قلوبهم ، ويتجاوز الله عن أعمال المســـيئين إذا كانت نياتهم التى يضمرونها فى قلوبهم نيات صالحة بشرط أن يكونوا معذورين فى أخطائهم بممارسة الأعمال السيئة [٢] .

وقـــد يتصـــور الـــبعض أن شرط النية لا علاقة له بهذا الأسلوب التربوى القائم على الحـــوار والجـــدل ، وليس هذا صحيحا . ذلك أننا علمنا من شروط صحة الجدل والحوار أن يلتزم أطرافه بالأمانة والصدق ، ولا شك أن طول التمرس بكل من الأمانة والصدق من شأنه أن يجعـــل المعلم موضوع التربية جديرا بأن يكون صادق النية ومخلصا فيما يصدر عنه من أعمال .

وإذا كـــان (البيان) نعمة من أجل النعم التى أسبغها الله على الإنسان ﴿الرحمن .عَلَّمَ الْقُـــرْآنَ . خَلَقَ الْأِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ، فقد بين الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المســـداة ، وكـــيف يجعلـــون كلامهم الذى يتردد سحابة النهار على ألسنتهم طريقا إلى الخير المنشود ، فإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام ولا تهدأ لألسنتهم حركة [٣] . فإذا ذهبت تحصى ما قالوا ، وجدت جله اللغو الضائع أو الهذر الضار ، وما لهذا ركب الله الألسنة فى الأفواه ، ولا بهـــذا تقـــدر الموهـــبة المســـتفادة : ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْـــرُوفٍ أَوْ إِصْـــلاحٍ بَـــيْنَ الـــنَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِـــيماً﴾ [٤] . ولقـــد عنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام ، وأسلوب أدائه لأن الكلام

---

[١] الميدانى : الأخلاق الإسلامية ، ج١ ، ص ١١٢ .
[٢] المرجع السابق ، ص ١١٣ .
[٣] محمد الغزالى : خلق المسلم ، ص ٧٢ .
[٤] النساء / ١١٤ .

الصادر عن إنسان ما ، يشير إلى حقيقة عقله وطبيعة خلقه ، ولأن طرائق الحديث فى جماعة ما ، تحكم على مستواها العام ، ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها .

وحرص الإسلام على أن يكون القول الطيب والقول الجميل مقوما أساسيا من مقومات أخلاق المسلم ، فلقد أوضح القرآن أن القول الحسن من حقيقة الميثاق المأخوذ على بنى إسرائيل على عهد موسى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [١] .

والكلام الطيب العف ، يجمل مع الأصدقاء الأعداء جميعاً ، وله ثماره الحلوة . فأما مع الأصدقاء ، فهو يحفظ مودتهم ويستديم صداقتهم ، ويضع كيد الشيطان أن يوهى حبالهم ويفسد ذات بينهم : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ [٢] . إن الشيطان متربص بالبشر يريد أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء وأن يجعل من النزاع التافه ، عراكا داميا ولن يسد الطريق أمامه كالقول الجميل [٣] .

وأما حسن الكلام مع الأعداء فهو يطفئ خصومتهم ويكسر حدتهم أو هو على الأقل يوقف تطور الشر واستطارة شرره : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [٤] .

وفى يقيننا أن أهم مقوم من مقومات الكلام الطيب الجميل ، أن يكون بحجة وأدلة وأن يكون صادقا وأمينا ، وأن ينبنى على الإرادة الحرة والحوار والنقاش ، فالنظام والصدق والدقة والتسلسل المنطقى والاتساق والترابط وغير ذلك من عمليات ضرورية للحوار والجدل هى بغير شك من مقومات الجمال .

٥- **تحرير الوجدان والعقل البشرى** : وتربية المتعلم على دوام التساؤل والحرص على الاقتناع والبحث عن الأدلة والبراهين تجعل من العسير على غير دعوة الحق ، أن تستبد بعقل المسلم ووجدانه . إن الإصلاح والتغيير ، حركة ، والحركة عمل ، والإنسان ليس

---

[١] البقرة / ٨٣ .
[٢] الإسراء / ٥٣ .
[٣] الغزالى : خلق المسلم ، ص ٧٦ .
[٤] فصلت / ٣٤ .

حيوانا يساق إلى العمل بغير إرادة ، والإرادة لا تقوم بعمل إلا إذا كانت ملكا حقيقيا لصاحبها ، مما لزم معه تحرير الوجدان والعقل .

إن هناك مجتمعات عدة على درجة عالية من التقدم بالمقاييس الشائعة فى عصرنا الحالى من حيث مستوى الدخل والقوة العسكرية ومساحة الأراضى وما إلى ذلك ، لكنها تعيش درجة عالية من الاستبداد ، ولذلك نجد أن ولاة الأمر فيها قد يشجعون ازدهار وتقدم وانتشار عدد غير قليل من العلوم ، لكنهم فى نفس الوقت يحرصون على محاصرة تلك الأساليب التربوية والمناهج الفكرية التى تفتح الأذهان وتربى مهارات التفكير الناقد ، وتبث الشجاعة الأدبية فى المتعلمين التى تجعلهم لا يخشون غى الحق كبيرا .

وقول الكواكبى : " إن بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمرا . يسعى العلماء فى نشر العلم ويجتهد المستبد فى إطفاءه نوره والطرفان يتجاذبان العوام ، ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا ، وإذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة ، ويهينهم فيثنون على رفعته ويغرى بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته ، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه أنه كريم ، وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيما ، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب ، وإن نقم عليه بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بغاة " [1] .

ومن هنا فإن تربية المسلم على عبادة الله وحدة لا شريك له ، تحرر عقله ووجدانه من أن يخضع لسلطان فكرى آخر غير سلطان الخالق الواحد .

وتربية المسلم تؤمن حقا بأن هذا الكون يجرى على سنن ثابتة وفق المشيئة الإلهية سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ ﴾ ، لكنها تؤمن كذلك بأن الإيمان بالسنن الثابتة لا يبرر بأى حال من الأحوال فكرة (التواكل) التى هى الطريق الجهنمى للقضاء على حرية العقل والوجدان ، فالله لا يرسل الرزق للقاعدين دون سعى ، ومن فقد قوته فقد إرادته .

---

[1] عبد الرحمن الكواكبى : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، القاهرة ، طبع بالكتبية د . ت ، ص ٢٩ .

ألا فليعلم من لا يعلم أن ليس فى القرآن الكريم لفظ التواكل بأى من الصيغ على الإطلاق ، وإنما الذى فيه توكل على الله مسبوق بالعزم ومشروطا به : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [١] .

وهو يوجه سعى المؤمن إلى الخير ويلهمه الرشاد ، فالمتوكل على الله يراقب ربه فى عمله وقوله ومسعاه ، فلا يخون ولا يزيف ولا يضلل . ويعطيه التوكل على خالقه زادا من الثقة فى نجاح المسعى الصالح ، ويؤنسه ببشرى أجر عمله الطيب [٢] : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

وفى باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير إليه ، من صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز .. " .

ولاشك أن القدرة على السيطرة على الظواهر الطبيعية إنما تتأتى بإدراك القوانين التى تحكم سيرها ، ولذلك كان المنطق الذى يغرق العقل البشرى فى متاهات النظريات عالية التجريد بعيدا عن حركة الواقع ، غير مؤد إلى تحرير العقل ، بعكس ذلك المنطق الذى يتجه إلى صخب الحياة الواقعية ومشكلاتها ، ويتجه إلى الظواهر الطبيعية حاثا على دراستها والتفكر الواعى العاقل فيها .

ولعل قيمة هذا الأسلوب ، أنه يجعل العقيدة تتحرك مع حركة الحياة اليومية ، ومع الكون الواسع الكبير الذى يحيط بالإنسان ، ويدفع حياته إلى النمو والتجدد والاستمرار فلا يشعر المربى فى حواره مع تلاميذه أنه ينفصل عن الحياة وهو يتحدث ، ولا يشعر التلاميذ أنهم يغرقون فى ضباب الأفكار التجريدية ، وهم ينطلقون فى معرفة الله .. وبهذا تكون قضية المعرفة بالله والإيمان بوجوده ، قضية الحياة بكل ما فيها من قوة وحيوية واستمرار ، وليست قضية الخيال الذى يلهث ليفتش عن موطئ قدم له فى عالم الواقع [٣] .

وتواجهنا – فى هذا الأسلوب – آيات كثيرة ، نذكر منها : قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٤] . وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا

---

[١] آل عمران / ١٥٩ .
[٢] عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية ، ص ١٢٩ .
[٣] فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ٨٤ .
[٤] النحل / ٧٨ .

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [١] .

وهكـــذا نجد فى مثل هذه النماذج – وغيرها كثير بطبيعة الحال – كيف يمكن للمربى المســـلم أن يفيض فى الحياة عن ظواهر الحياة وهو يتحدث كأى حديث آخر يتصل بالحياة ، حتـــى إذا اســـتطاع أن يشد أفكار الآخرين واهتمامهم إلى ذلك ، أطلق الفكرة الإلهية ، كفكرة تبرر ذلك بكله ، وتعطيه المعنى المعقول فى عملية توعية وإيمان .

ويـــتعاظم هـــذا الدور فى الوسط العلمى الذى يهتم – دراسة وتدريسا – بعلوم النبات والحـــيوان والفيزياء والكيمياء ، فإن من الممكن أن يجد فى هذا الوسط الميدان الرحب الذى يجـــول ويصـــول فـــيه بالأسرار الكامنة فى كل هذه العلوم التى تمتد فى جذورها – بعمق – لتصل إلى المعرفة الحقة بالله سبحانه وتعالى [٢] .

---

[١] الأنبياء / ٣٠ – ٣٢ .
[٢] فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ٨٦ .